الفصل الأول

نظرة فى زراعة بلدان الشرق الأوسط

يُنسب إقليم[1] الشرق الأوسط إجمالاً إلى النوع المعروف بإقليم البحر الأبيض المتوسط ، وهذا الإقليم هو العامل الأكبر فى تكييف زراعة هذه الأصقاع . فمعظم أمطارها تهطل فى شهور الشتاء بين نوفمبر ومارس (تشرين الثانى وآذار) ؛ أما فصل الصيف من مايو إلى أكتوبر (أيار إلى تشرين الأول) ، فلا أمطار فيه ، إلّا فى السودان والحبشة ، حيث يكون تهطال المطر فى الصيف . فقبرس وشمالىّ فلسطين ، وقسم كبير من سورية والعراق و إيران كلها أمثلة للأقطار التى تكفى أمطارها فى الشتاء لاستغلال الغلات الشتوية ، وقد تكفى أيضاً لاستغلال الغلّات الصيفية ، إذا ما تُركت الأرض تستريح فى الشتاء .

وهنالك أقطار أخرى يختلف إقليمها عن إقليم البحر الأبيض المتوسط ، فبعضها أمطارها شحيحة ، وأخرى تغزر أمطارها ، وتتوزّع على فصول السنة توزُّعاً يُعَدُّ حسناً فى الجملة . مثاله أن صحارى مصر وسيناء تكاد تخلو من المطر . وفى النَجَب جنوبىّ فلسطين يكون المطر من الشح بحيث ربما أمحل الزرعُ سنتين فى كل خمس سنين . أما فى لبنان والحبشة وشمالىّ إيران (بين جبال البرز و بحر قزوين) فالأمطار غزيرة ، وتوزيعها حسن إجمالاً ؛ ولهذا يمكن فيها استغلال أنواع كثيرة من الزروع الشتوية والصيفية[2] . وأما الرياح الحارة

---

(١) الكلمة الفرنسية climat والإنكليزية climate والعربية إقليم ، كلها من أصل يونانى واحد وهو klima بمعنى الميل ؛ ويريدون به ميل مكان ما من الأرض عن معدل النهار ؛ ثم استعملوها بمعنى المكان المائل ، ومعنى القطر والصقع والكورة والرستاق ، أى بما نسميه اليوم « منطقة » (أنظر ما ورد فى التاج وفى مقدمة معجم البلدان نقلا عن البيرونى وهذا عن الهروى) . وهى تتضمن عند الفرنج معنى القطر والكورة ؛ وتتضمن أيضاً معنى آخر أكثر شيوعاً وهو مجاع الأحوال الجوية والجغرافية التى تسود ذلك القطر ، أى ما نسميه اليوم بالعامية الطقس والمناخ ، من رياح وأمطار وحرارة وموقع جغرافى الخ . ولذلك نرى أن تستعمل كلمة إقليم المعربة قديماً لهذا المعنى الأخير أيضاً ، على ما هو شائع فى مدارس الشام والعراق ، منذ أيام الدولة العثمانية . أما الجويا فقد وضعتها فى « معجم الألفاظ الزراعية » أمام كلمة Météorologie (المصحح) .

(٢) قسمت فى كتاب « الزراعة العملية الحديثة » أقاليم الشام الزراعية خمسة أقسام وهى أقاليم الغور والسواحل والجبال والسهول الداخلية والصحراء . وذكرت مجملا فى جوّياتها ومعدل ارتفاع الأمطار فى كل منها ، وما يمكن زراعته فى الأعذاء من الزروع الشتوية والصيفية الخ (المصحح) .

(كالرياح الخمسينية فى مصر وفلسطين ، والرياح القِبْلية فى طرابلس الغرب) ، وكذا عواصف الرمل والعجاج (كالهبوب فى السودان) ، فهى تجرف التراب عن سطح الأرض ، وتُلحق بالزرع أضراراً بليغة ، ولا سيما فى الأقطار التى تُهمَل فيها غراسة الحِراج ، وإقامة وقاء من الشجر أو العِيص يَقِى حقول الزرع و بساتين الفواكه[١] .

و يضاف إلى هذه الخلاصة فى الأحوال الجوية عوامل موضعية كثيرة تؤثر فى نظام الزراعة المتبع ، منها طوبوغرافية الأرض ، ونوع التربة ، واستعمال الماء للإسقاء ، وضرورة مدّ الأسواق الداخلية أو الخارجية بغلّات معيَّنة .

و إذا أهملنا النظر إلى انتشار الإسقاء على نطاق صغير أو كبير ، أمكننا القول بأن زراعة الشرق الأوسط تقوم فى جوهرها على إنتاج القوت ، أى على زراعة الحبوب للحصول على الخبز ، وعلى تبوير مساحات واسعة من الأرض لتستريح مدة طويلة ، ويعمل معظم الفلاحين فى مساحات صغيرة مجزأة أجزاء مبعثرة . ولهذا يستغرب المرء أن يرى فى يومنا هذا قطعاً صغاراً من الأرض تستغل وفق نظام الزراعة المتسعة ، أى على الطريقة الأوربية القديمة المسماة تحويل الأرض[٢] ، على حين أنه من المستطاع جعل هذه الأراضى تزدهر باتباع نظام الزراعة الكثيفة ، مع الإكثار من الجمعيات التعاونية كما هى الحال فى بلاد الدنمرك .

وتعيش ماشية الفلاحين أيضاً فى ظل نظام الزراعة المتسعة ، فلا ينتج الفلاحون سوى مقادير ضئيلة من الأعلاف الضرورية لها . ولهذا فهى تعيش مما تستطيع الحصول عليه من قصب الزرع وسيقان المزروعات المختلفة ؛ والأعشاب المضرة بالزرع التى تنمو فى الأراضى المزروعة أو البائرة ، والحشائش المتنوّعة التى تنبت فى الأراضى المُشاعة ، وفى التلول الوعرة . ومع ذلك فإن معظم المواشى هى فى حوزة رجال القبائل الرُّحَّل ، يطوون معها شواسع الأرضين . منتقلين من السهول إلى النجود ، ومن شواطئ الأنهار إلى الأماكن المرتفعة ، انتجاعا للكلأ ، واستقاء للماء ، وكلا الصنفين من الماشية المستقرة أو الرحّالة قد نشأ فى بيئة

---

(١) راجع تقرير الدكتور ورثنكطن Dr. E. B. Worthington عن العلم فى الشرق الأوسط ، الفصل الرابع والفصل السابع : تعليق على قضايا الإقليم وتدارك الماء .

(٢) التحويل زرع الأرض حولا وتبويرها حولا لتستريح (المصحح) .

خشنة ، فألِفَ شظف العيش فى إقليم ونظاماً للتغذية يستحيل أن تتحملها سلالات الماشية فى غربى أوربة ، وهى السلالات التى جُوِّدت تجويداً كبيراً فى لحومها وألبانها .

وفى البيان الموجز التالى أجملنا وصف العوامل الخاصّة والعامة للأنظمة الزراعية فى كل قطر، وأهملنا الإسهاب ، وإن يكن فى الإسهاب فوائد موضعية كبيرة فى الأعمِّ من الحالات .

(١) فبرس

يتاخم السهلَ المركزى الفسيح واسمه (ميزورية Mésaoria) من الشمال سلسلةٌ جبلية تعلو ٣٠٠٠ قدم[١] . ومن الجنوب سلسلة أخرى تعلو ٦٠٠٠ قدم . وثمة سهل ساحلى ضيق بين البحر وكل من السلسلتين . والإقليم نموذجٌ لإقليم البحر الأبيض المتوسط . والمطر يهطل فى أشهر الشتاء . ويتراوح علوّه بين ١٥ إنشاً (بوصة) أو أقل فى سهل ميزورية ، و ٢٥ إنشاً (بوصة) أو أكثر فى الأماكن المرتفعة من الجبال الجنوبية . وتكتسى الجبال بالثلوج .

أما الصيف فحارٌّ طويل ، وأما الشتاء فمعتدل . وليس فى الجزيرة أعمال مهمة للرىّ ، بل مشاريع كثيرة موضعية ، للاستفادة من الينابيع ، ولحفر الآبار ، وتحويل مياه السهول . وهنالك جهود ناجحة مستمرة للإكثار من هذه المشاريع ، وإصلاح الموجود منها ، كما أن هنالك أنظمة عديدة تتناول زراعة الغلات .

١ — زراعة العِذْى :[٢]

هذه هى فى الواقع الدورة الثنائية ، وتسمى نظام التحويل[٣] . وما برح هذا النظام متبعاً فى مساحات واسعة من الشرق الأوسط ، ولا سيما فى الأقطار العربية . فالحبوب تُبذر فى الخريف ، فى نصف الأرض ، بحيث تُجعل الحنطة فى القسم الجيد من هذا النصف ، ويُجعل الشعير فى قسمه الردىء . أما النصف الثانى من الأرض فيبوَّر ثلثاه للراحة ، ويُزرع الثلث الباقى فى الزمن الواقع بين زراعتين من الحبوب . وتحصل الأرض على مقدار من

---

(١) القدم الإنكليزية تساوى ٣٠ سنتمتراً و ٤٨ فى المائة من السنتمتر . وهى تقسم ١٢ إصبعاً يسمونها إنشاً أو بوصة ، فتكون هذه البوصة سنتمترين و ٥٤ فى المائة من السنتمتر (المصحح) .

(٢) العذى والبخس (جمع أعذاء وبخوس) والبعل والظمأى الزرع لا يسقى غير المطر (المصحح عن معجم الألفاظ الزراعية) .

(٣) انظر الشرح فى حاشية رقم (٢) ص ١٣ .

الروث تتركه القطعان التى ترعى الحصيد أو ترعى فى البور من الأرض . ويُستعمل اليوم قليل من الأسمدة المعدنية فى زراعة الحبوب .

٢ — زراعة السِّقى :[١]

يُزرع صنفان من الزروع فى السنة : الحبوب فى الشتاء وزرع مَسْقَوِىّ فى الصيف . ويكون الإسقاء إما بمياه السيول وإما بمياه باطن الأرض . وفى الحالة الثانية يمكن إسقاء المزروعات أثناء نموّها . والنباتات الزراعية التى تُروى سَيْحاً أو غَمْراً ، القطنُ والسمسم والبطيخ واللوبيا . أما القنب والفاصوليا والتبغ والخضراوات والبطاطس فهى تُزرع وفقاً لأسلوب آخر . وهذا النظام يؤدى إلى استغلال الأرض على شكل ناجع . ويلاحظ أن استعمال الزبل اليوم يفوق استعماله فى الماضى .

٣ — زراعة النُّجود :

تُزرع فيها الحبوب كما فى الأعذاء . وتكون منضمّةً إلى أشجار الزيتون والخَرُّوب . والحقول صغار مبعثرات .

٤ — زراعة البساتين والفواكه :

تشاهد بساتين الموالح[٢] فى السهول وفى بعض أراضى الوديان المنخفضة . وتكثر فى المرتفعات مغارس أشجار الفواكه المُقْبِلة أى التى تسقط أوراقها فى الشتاء . فالتين واللوزيّات[٣] تُرى فى مواقع كثيرة . أما الكروم فهى متجمعة على الأكثر فى القسم الجنوبى من السلسلة الجنوبية ، ولا سيما فى منحدرات شديدة الميل ، لا تدرّج فيها ؛ أما الأماكن الكثيرة الحجارة كالأراضى الكلسية فهى تُجعل على شكل مدرّجات .

---

(١) السقى والمسقوى الزرع الذى يسقى بإحدى طرائق الإسقاء .

(٢) تسمى الحوامض فى الشام . ويشيرون بذلك إلى أشجار الفصيلة البرتقالية كالبرتقال والليمون الحلو والحامض والأترج واليوسفى الخ (المصحح) .

(٣) اللوز والجوز وأشباههما ، وربما سميناها الجوزيات (المصحح) .

٥ — تربية الماشية :

لا وجود للزراعة المختلطة . وحرارة الصيف وجفافه يجعلان انتجاع الكلأ من الأمور العسيرة ، كما أن وفرة النفقات تحول دون زراعة نباتات العلف فى الأراضى التى تُسقى . ولهذا لا يُرى البقر الحلوب و بقر التسمين إلا فى ضواحى المدن الكبيرة حيث يوجد شىء من صناعة الألبان . وفى أحوال كهذه يقوم البقر بأعمال المزرعة ؛ وتقتصر الماشية وتربيتها على طواف الضأن والمعز فى القراح والبور من الأرض ، وفى مراعى القرية . وعلف المواشى نادر . وكثيراً ما يتنازع الرعاة والزرّاع والحكومة بسبب عبث قطعان الغنم بالمزروعات والحَرَجات .

(ب) فلسطين :

بلاد صغيرة لا يتجاوز طولها من الشمال إلى الجنوب ١٦٠ ميلاً[١] ، ومعدّل عرضها ٥٥ ميلا ، وسلسلة نجودها المركزية تتجه من الشمال إلى الجنوب تقريباً . وهى تقسم قسمين : القسم الأول شمالىّ يمتد من الناصرة إلى جبل الثلج[٢] فى سورية . ويتألف من النَسَف أى حجارة الحَرّة . والقسم الثانى جنوبىّ يمتدّ من جبل الكرمل إلى نابلس شرقاً ، وإلى بئر السبع جنوباً ، وهو كلسى . ويفصل مرجُ بنى عامر القسمَ الجنوبى عن القسم الشمالى . وتربة هذا السهل مندمجة ولكنها خصبة . وعرض السهل الساحلى نحو عشرين ميلاً ؛ وفيه جزء ضيق فى حيفا . والأتربة الرملية تسود جنوبىّ حيفا ، مع حاشية من تراب أكثر اندماجاً فى الجنوب والشرق . ويوجد شمالىّ حيفا أتربة طينية مندمجة ومناقع . وشرقىّ السلسلة المركزية يقع غور الأردنّ العميق . وهو ينتهى شمالاً بأراضى بحيرة الحُوْلة حيث المناقع الواسعة والغِضار (الطين) المندمج .

والإقليم نموذجٌ لإقليم البحر الأبيض المتوسط . ومع هذا يتناقص مجموع أمطار الشتاء سريعاً من الشمال إلى الجنوب : فى السهل الساحلى ينقص ارتفاع المطر السنوى عن عشرين إنشاً (بوصة) حتى عشرة إنشات (بوصات) ؛ وفى غور الأردن من عشرين إنشاً (بوصة)

---

(١) يساوى الميل الإنكليزى ١٦٠٩ أمتار . أما الميل البحرى الإنكليزى فيعادل ١٨٥٥ مترا (المصحح) .

(٢) من أسمائه حرمون وسنير وجبل الشيخ . وهو الذى عناه المؤلف بقوله لبنان الشرقى (المصحح).

حتى إنشين (بوصتين) ؛ وفى سلسلة النجود المركزية من ٣٥ إنشاً حتى ٢٥ إنشا . ويختلف مقدار المطر اختلافاً كبيراً بين سنة وسنة ، حتى أن معدّل المطر ربما نقص إلى نصفه فى سنةٍ ما ، وربما تضاعف فى سنة أخرى . ومياه السُقيا غير مناسبة ، فليس هنالك إلا القليل من المكوّنات الصخرية الصالحة لإقامة الأسداد فى وجه المياه . ويبدو أن المياه الأرضية محدودة وكثيراً ما يحول عمقها الزائد دون استعمالها اقتصادياً ، فضلا عن أن البعض منها مالح .

وللزراعة شأن كبير لا سيما من جراء التطور الذى حققه المُعَمِّرون[١] اليهود ، وهو ما بُحث فيه على حدة (الفصل الثالث ١ ، ٤ ، ٥ ، ٦)

ويختلف نظام الزراعة الذى يتّبعه العرب . وأبسط نظام إنما يُتّبع فى أراضى جنوبى بئر السبع وغزة ، حيث الأمطار قليلة جداً ، وحيث تُزرع الأرض سنة شعيراً وتُبوَّر فى السنة التالية لتستريح . والمحصول تافهٌ ، على حين أن مساحة الأرض التى تزرع هنالك شعيراً تبلغ نحو سبعين فى المائة من مجموع المساحات التى خُصّ بها الشعير فى فلسطين . وفى سنة ١٩٣٥ بلغت نسبة الشعير ٣٠ فى المئة ، وفى سنة ١٩٣٦ بلغت ١٥ فى المئة من مجموع الغلاّت فى فلسطين[٢] .

ومع هذا فالنظام الأكثر شيوعاً فى تعاقب الزروع هو نظام الدورة الثنائية ، يخلف فيها الزرع الشتوى من قمح أو شعير ، إحدى القَطانِىّ الشتوية[٣] أو أحد الزروع الصيفية كالذرة أو السمسم (فى السنة التالية لا فى السنة نفسها) وتُتّبع الدورة الثلاثية أيضاً على الصورة الآتية : حب — قطانى — زرع صيفى . ولهذه الدورات عيب جلىّ : وهو أنها لا تساعد على التزوُّد بعلف الماشية طيلة أيام السنة ، فينتج عنها نقص فى الزبل : ومع هذا يبدو أن هذه المادة التى تُجمع على مقربة من القرى ، تُترك دون ما استعمال ؛ أو تباع فتُنقل إلى أماكن أخرى ، حيث تُستعمل فى بساتين الموالح . وتُربّى مواشى العرب على الطريقة

---

(١) أصلح كلمة استعملتها فى « كتاب الاستعمار » بمعنى Colon — (المصحح) .

(٢) الفصل الرابع « الزراعة » بقلم براون M. Brown فى كتاب « النظام الاقتصادى فى فلسطين وهو من منشورات الجامعة الأميركية فى بيروت .

(٣) وتسمى أيضاً القرنيات والسنفيات كالجلبان والكرسنة والعدس والحمص والفول الخ (المصحح)

المعتادة ، أى على شكل قطعان رحّالة أو مستقرّة ترعى الحصيدة بعد الحصاد أو أعشاب الأراضى غير المزروعة .

وتختلف أنظمة اليهود الزراعية كثيراً عن أنظمة العرب . فقد حقق اليهود تقدماً يمكن أن يتميّز فيه ثلاثة أطوار : الأول نظام الزراعة المعروف عند العرب ؛ والثانى توسيع الزراعة المختلطة فى البعل من الأرض ؛ والثالث نشر أنماط مختلفة من الزراعة المختلطة فى الأراضى المسقوية مع دراسة فنّ الإسقاء . وفى الوقت نفسه انتشرت زراعة الموالح فى السهول الساحلية ، فبلغت مساحتها فى سنة ١٩٣٩ نحو ٧٥٠٠٠ إيكر[١] . وثلث هذه الموالح لم يكن بعدُ قد أطْعم كامل ثمره فى عام ١٩٤٣ . ويملك اليهود نصف مساحات الموالح تقريباً ؛ ويملك العرب القسم الآخر . أما مغارس الزيتون فهى منتشرة فى الأراضى المركزية والشمالية إجمالاً ؛ وجميعها تقريباً فى أيدى العرب والقيمة المالية لمغارس الزيتون وصناعته تساوى قيمة الموالح .

(ج) سوريا ولبنان :

تتألف التشكّلات الطوبوغرافية جوهرياً من قسم غربىّ جبلىّ طويل قريب من الساحل ، ومن نجدٍ شرقى متجعّد يمتد منحدراً إلى سِقْى دجلة والفرات .

وفى لبنان يقع القسم الجنوبى من الجبال . وهى تتألف من سلسلتين متوازيتين هما لبنان ولبنان الشرقى يفصل أحدهما عن الآخر وادٍ هو سهل البقاع العالى الذى يبلغ إرتفاعه ٣٠٠٠ قدم[٢] ومعظم الأراضى السورية نجد متجعّد .

والإقليم إقليم البحر الأبيض المتوسط . وتقلّ أمطار الشتاء باتّساق من لبنان إلى سورية ، على حسب الأوضاع الطوبوغرافية . وهكذا فإن لبنان أغنى من سورية بأمطاره وأنهاره وينابيعه ؛ ولكن فى سورية نهرين كبيرين هما العاصى والفرات لا يُنتفع اليوم إلاّ بجزء من مياههما . ويحدّ طول الصيف وجفافه من تنويع المزروعات : ففى الأعذاء لا يُستغلّ

---

(١) الإيكر يساوى ٤٠٤٦ متراً مربعاً — (المصحح) .

(٢) إذا نظرنا إلى أراضى بقاع العزيز نظرة مجردة نجد أنها سهل واسع . وإذا شملت نظرتنا إليها جبلى لبنان ولبنان الشرقى ، اللذين يكتنفانها شرقا وغربا ، جاز لنا أن نسميها واديا . ولما كانت تلك الأراضى على ارتفاع ٩٠٠ متر أو أكثر عن سطح البحر جاز نعتها بالسهل العالى — (المصحح) .

سوى النباتات التى تقل حاجتها إلى الماء كالذرة وكالأشجار والجنبات العميقة الجذور ومنها الزيتون والكرم . ويمكن بالسقى زرع مجموعة كبيرة من الزروع ، على ما هى الحال فى القسم الساحلى الضيق من لبنان ، حيث تزرع أنواع مختلفة من الحبوب حتى الموز . وتنمو فى الجبال الكروم وفواكه الأقاليم المعتدلة ويزرع فى سفوح الهضاب الشمالية تبغ اللاذقية المعروف ، كما يزرع فى سهل البقاع عديد من الحبوب الشتوية والقطانىّ . أما فى الأجزاء المسقوية من ذلك السهل فيُزرع البطاطس والبقول وهى من الزروع الصيفية . وترتكز زراعة سورية مبدئياً على إنتاج الحبوب . و « الحقول » الفساح التى تُزرع على أسهم طوال فى القرى المشاعة تتميز بهذا الطابع الخاص . والدورة الزراعية هى : حنطة — استراحة — عدس أو بيقية . وهناك كُورتان هامتان لهما صفات خاصة : الأولى القرنة الشمالية الشرقية ، أى كورة الجزيرة بين دجلة والفرات ، أرضها محصاب وأمطارها غزار ، وهى تُنتج القمح ؛ وكانت فى الماضى أحد أهراء رومة . ولا يُستغل منها اليوم سوى مساحات صغيرة نسبياً . والكورة الثانية هى واحة دمشق[1] حيث مياه بَرَدى شمالاً ومياه الأعْوج جنوباً ؛ وهى تُستغل منذ مئات عديدة من السنين بالسُقيا ، ولولا ذلك لضاعت فى الصحراء الشرقية . وهنالك اتساق واضح فى طرائق استغلال تلك الأرض ، يبدو لمن يتّجه من دمشق إلى خارجها ، إذ يَرى الألبان ، فالزيتون و بساتين الفواكه والبقول ، فالكروم ، فالحبوب ، فالصحراء .

وضأن القبائل والمعزى توفّر كميات اللحم واللبن ولا سيما فى سورية ، أما فى لبنان وفى واحة دمشق فللبقر شأن كبير . ويمكن حسبان البقر البيروتى والبقر الشامى من السلالات الثابتة .

(د) شرق الأردن :

الأردن هو الحدود الغربية لشرق الأردن . وتنحدر فيه النجود والهضاب الخالية من التضاريس ، فى اتجاه الشمال والشرق ، حتى تبلغ صحارى سورية والبلاد العربية السعودية. وتأتى الغيوم المَطِرة فى الشتاء مع رياح البحر الأبيض المتوسط فيسقط معظم مياهها أثناء

(١) الغوطة والمرج — (المصحح) .

مرورها فوق فلسطين . وتبرد هذه الغيوم فى صعودها ومسِّها مرتفعات غور الأردن الشرقية ، فيزداد تكاثف مياهها ، ويسقط جزء كبير منها على بقاع ضيقة من تلك المرتفعات. وتتناقص الأمطار تدريجيا فى هذه البقاع من الشمال إلى الجنوب على غرار ما مرّ ذكره فى فلسطين . وكذلك كلما بعدت الأرض نحو الشرق قلت أمطارها حتى تصبح عديمة الشأن .

ويتعلّق نظام الزراعة المتّبَع بهذا الطراز من هطول الأمطار ، فتُزرع الزروع الشتوية والصيفية المعروفة فى الأراضى الأغزر مطراً ، ويُسقى القليل من الزروع الصيفية . وتقوم مغارس الكرم والزيتون فى المنحدرات ، وتُتّبع اضطراريا طريقة زراعة الأراضى اليابسة[1] فى كل بقعة أمطارها قليلة . ويمتد استعمال هذه الطريقة حتى سِيف الصحراء حيث يضعف الأمل فى إنتاج غلة من الغلات .

والضأن والمعزى هى الماشية الرئيسية ، وهنالك قليل من الأبقار فى غور الأردن ، كثرتها حقيرة ، وتُجْلب ثيران الفلاحة المخصيَّة . ومعظمها يُجلب من سورية .

(هـ) العراق :

إن وادى دجلة والفرات الممتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى هو المحور الطويل للعراق . فالجزء الشمالى من القطر هضاب متماوجة ، وجبال شمالية شرقية ، أما سائر القطر ، وهو الجزء الأوسع فسهل مستوٍ يعلو قليلا عن مستوى البحر .

وإقليم القسم الأكبر من العراق من طراز الأقاليم الصحراوية الصميمة فالشتاء باردجدا ، والصيف حارّ مع زوابع يثور فيها العجاج ، ولا سيما فى الأجزاء الوسطى والجنوبية . وأمطارُ هذا الإقليم كأمطار منطقة البحر الأبيض المتوسط ، غير أن مقادير الأمطار تقل كلما ازداد ضبط الهضاب الفلسطينية لها ، والكُوَر المطيرة فى العراق هى الكور الشمالية المرتفعة . وتُتّبع فيها طريقة زراعة الأراضى اليابسة التى تستند على الأمطار ، مع زراعة أشجار الفواكه ، والبقول الصيفية بالسُّقيا . أما بقية القطر فالمعوَّل فيها كلها تقريباً على الإسقاء .

---

(١) يراد بالأرض اليابسة تلك التى لا يستطاع إسقاؤها ، والتى يبلغ ارتفاع أمطارها السنوية ٥٠٠ مليمتر ، ولا ينقص عن ٢٥٠ مليمترا . فإذا نقص عن هـذا المقدار يصبح من الصعب زراعتها اقتصاديا . ومعظم أراضى الشام الزراعية من هذا القبيل — (المصحح) .

ولا يُستغل من الأراضى الزراعيـة إلا ربعها تقريباً . ويقع ما يقرب من نصف هذه المساحة المستغلة فى القسم الشمالى من القطر ؛ وهذا القسم صغير إذا قيس بسائر أراضى العراق .

وهنا — أى فى القسم الشمالى — تُزرع الحبوب والقطانىّ و بعض النباتات الدهنية ، فتنمو على أمطار الشتاء . وتشتمل الزروع الصيفية التى تُسقى فى الوديان على شتى أنواع البقول ، وعلى مرَزّات عظيمة ، وعلى مُعْبِلات أشجار الفواكه[١] ، وعلى اللوزيات[٢] .

وتظهر فى الطساسيج[٣] الوسطى والجنوبية اختلافات فى نتائج أعمال الإسقاء . فهنالك طفرة لتكثير الأراضى الصالحة للإسقاء ، سواء بالمياه المتوفرة اليوم ، أم بالمياه التى يمكن توفيرها ؛ ولهذا لا ضغط فى العراق من قبل السكان على الأرض . وقد نتج عن ذلك أنهم يَتّبعون نظام الزراعة المتسعة على مقياس كبير ، فيتركون نحو ثلثى الأراضى الزراعية تستريح فى كل عام . وكثير من الأرض معرّض للفساد من جراء الإسقاء ، ما لم يتداركوه بعناية تفوق عنايتهم به فى الوقت الحاضر . ومن قواعد الإسقاء العامة أنه إذا فقدت أعمال الصرف الرئيسية يكون تولّد البيئة القلوية أمراً محتوماً . ويحتال الأكّارون لهذا الأمر باتباع ضرب من الزراعة المتنقلة ؛ أى أنهم عند ما تسوء حالة الأرض يتحولون إلى أرض جديدة ، ويتخلّون عن التى ساءت ، حتى تعود فتَصلُح من تلقاء نفسها ، ولكن هيهات أن يكون صلاحها ممكناً . ومن نتائج هذا الأسلوب البدائى ، ولا سيما فى المنبسط من الأرضين المنخفضة المرافقة للأنهار ، أن مياه السُقيا الفائضة ، ومياه الرشح ، تجد لنفسها طريقاً إلى المنخفضات المذكورة ، حيث تستنقع وتُحْدِث المناقع والسباخ .

والزروع هى من الأنواع المعروفة أى أنها حبوب وقطانىّ و بعض النباتات الدهنية فى الشتاء ، وسمسم وذرة وذرة صفراء[٤] وقليل من القطن فى الصيف .

وفى القسم الجنوبى من القطر مساحات هامة سَقيها غزير وصرف مياهها حسن بفعل المدّ والجزر (انظر الفصل الثالث ا ح) ؛ وأهمها مغارس النخيل الشهيرة ، تمتدّ إلى جانب

---

(١) المعبلات التى تسقط أوراقها فى الشتاء . والعبل الورق الساقط — (المصحح) .
(٢) اللوز والجوز وأشباههما — (المصحح) .
(٣) الطسوج قديماً فى العراق الكورة أى ما يسمى اليوم منطقة زراعية — (المصحح) .
(٤) ذرة شامية فى مصر — (المصحح) .

شط العرب ، على بقعة طويلة يبلغ طولها ١٢٠ ميلاً وعرضها ثلاثة أميال . وتختلف ملكية هذه الخُشّان[١] بين ملكية كبيرة وملكية صغيرة ، وتُزَبَّل أرضها بغزارة ؛ ويُغرس فيها أشجار الفواكه ؛ وتزرع المُقْحَمات من البقول والحبوب والفصفصة[٢] . وعلى طول نهر ديالة فى جوار بغداد بقعة صغيرة كثيرة الثمار تنتج الموالح والمحصولات الشتوية و بقول البلاد المعتدلة والفواكه . وتستغلّ أطراف المناقع التى مرّ ذكرها فتزرع رزاً .

وللماشية شأن فى اقتصاديات القطر العامة . وأصحاب البقر فى الجملة هم الزرّاع المستقرون فى الأقسام الشمالية وزراع الأراضى المروية . وثمة قطعان كبيرة عند شركاء من الأكراد فى الشمال الشرقى .

وللعرب اختصاص بتربية الجاموس فى السبخات . والمواشى منتشرة فى البقاع المجاورة للأنهر ؛ أما معظم الضأن والمعز فهى فى حوزة القبائل الرُّحَّل وأشباه الرحل ، على شكل قطعان يختلط فيها النوعان ، وترتاد المراعى الصحراوية فى الشتاء ، والأراضى المجاورة للأنهار فى الصيف .

(و) ايران :

يتألف القسم الأكبر من البلاد من هضبة مركزية واسعة ، هى تتمة النجد الآسيوى المركزى العالى . وعلو هذه الهضبة نحو ٤٠٠٠ قدم ، تتخللها فى بعض المواقع سلاسل صغار من الجبال ، تتجه فى الجملة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، موازيةً لجبال زغروس التى هى الحدود الغربية والجنوبية للهضبة . أما الحدود الشمالية فهى سلسلة جبال البَرْز العالية التى تتصل سفوح مرتفعاتها فى الشمال بأطراف سهل قزوين الساحلى الضيق . ويمتدّ جنوبىّ جبال زغروس ، عند رأس الخليج الفارسى ، سهلٌ آخر وسِقْى نهر قارون .

ويتصف إقليم الهضبة المركزية بالصفات المختلطة للأقاليم البرية والأقاليم نصف القاحلة ، فعلوّ الأمطار فى القسم الشمالى الغربى عشرة إنشات ؛ ويتناقص المطر تدريجياً فى اتجاه الجنوب الشرقى ؛ أما أمطار الكورة الواقعة بين جبال البرز و بحر قزوين فهى غزيرة ،

---

(١) الخش ج حشان والحائش ج حوائش : بساتين النخل — (المصحح) .

(٢) البرسيم الحجازى فى مصر — (المصحح) .

ومعظمها يهطل فى الخريف والشتاء ، مع أمطارٍ غزيرةٍ تسح فى الربيع والصيف . والإقليم معتدل نسبياً . وتتصف البقاع الواقعة حول الخليج الفارسى بصيف شديد الوطأة ، وشتاء معتدل ، وأمطار شحيحة فى الشتاء . وإذا استُثنى قسم البرز — قزوين ، أمكن القول بأن المياه قليلة فى هذا القطر . وليس من النادر أن تكون شديدة الملوحة لا تصلح للسَّقْى . وفى الهضبة المركزية سباخ واسعة وبحيرات ترويها أنهار صغار . وتراب جزء كبير من الهضبة المذكورة مالح ، على ما هو متوقع . وسقى قارون خصيب ، أما أراضى السهل فمعظمها مالحة .

وتُقَدَّرُ الأراضى الزراعية بما يتراوح بين ١٠ و ١٥ فى المائة من مجموع أراضى القطر . وفى الاستطاعة زراعة مساحات أخرى تقدَّر بما يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ فى المائة إذا أمكن مَدُّها بماء الإسقاء . والمراعى ١٥ فى المائة ؛ وكذا الحراج . أما القسم الذى يدخل فى عداد البادية فلا يقل عن ٣٠ فى المائة .

والقمح والشعير يسودان سائر الزروع . ويُزرع الرزّ فى الأماكن الغزيرة المياه من سواحل بحر قزوين .

وتكثر زراعة القطانىّ والنباتات الدهنية والأقطان . أما البقول فهى تزرع فى أراضٍ متنوعة ، ولا سيما القريبة من الأماكن الآهلة بالسكان . وقد تمَّتْ فى السنين الأخيرة محاولات كثيرة لجعل البلاد تكفى نفسها مؤونة الشاى والسكر . ومغارس الشاى فى سواحل بحر قزوين ويُزرع البنجر[1] السكرى فى الهضبة المركزية . ويُنتج الفلاح البنجر بوسائله المحدودة ، مما لا يأتلف مع تطوّر الأعمال الصناعية التى أصبحت تُؤتَى فى معامل حديثة واسعة (انظر الفصل الثانى ج) . وفى الماضى كان يُزرع المُصّان أى قصب السكر فى سواحل بحر قزوين وفى سقْى قارون . وفى هذا المكان الثانى يقومون اليوم بتجارب يتوخّون بها إمكان العودة إلى إحياء هذه الزراعة .

---

(١) يسمى الشوندر والشمندر فى الشام والعراق ، وهما من أصل فارسى . والبنجر المستعملة فى مصر مقتبسة عن التركية . وسماه ابن البيطار صوطلة . وهى من أصل يونانى . والسلق والبنجر نوع نباتى واحد . فالزراعة على كر الأيام غلظت ورق الأول كما غلظت جذور الثانى (عن معجم الألفاظ الزراعية — (المصحح)

وتنتج البلاد أنواعاً كثيرة من الفواكه ، واللوزيات ، منها ما يُغِلُّ مقادير كبيرة للأصدار وينحصر إنتاجها فى سفوح الجبال إجمالا .

والنظام الزراعى المتبع هو المعروف فى العراق ، ما عدا سواحل بحر قزوين ، حيث أَلِف الفلاحون تبوير قسم كبير من الأرض ، لأن المياه فيها قليلة ، ولكى تسترد الأرض المستريحة قوّتها .

والماشية يملكها كلٌّ من البدو والحضر . والضأن أعظم المواشى شأنا . والمعز نصف الضأن ، وهما المورد الأعظم للحم واللبن ، ولتزويد التجارة الداخلية والخارجية بالصوف والجلد والبقر صغير الشأن ، عدا ثيران الجرِّ .

(ز) مصر :

إن مصر الزراعية بقعة ضيقة من الأرض تتاخم شاطئ النيل . وهى كثيفة الزراعة مكتظّة بالسكان ، أمطارها شحيحة لا قيمة لها ؛ ولذلك فهى تعتمد بصفة خاصة على نظام الرى[1] الوحيد فى اتساع منشآته وإدارته ، وفى نتائج أعمالها المحكمة .

وقد كان لتحويل الأرض من ريّ الحياض إلى الرى المستديم شأن عظيم ؛ ففى النظام السابق كانت الأرض تُترك فى الصيف لترتاح ؛ أما فى النظام الجديد ، أى نظام الرى المستديم فقد صارت الأرض تُزرع فى الفصل المذكور ؛ ولهذا زادت القدرة على إنتاج الغَلاّت بهذه الوسيلة ؛ ولكن استعمالها وَلَّد شيئا من الشك فى دوام الأرض على الاحتفاظ بمستوى خصبها السابق (انظر الفصل الرابع ب) .

ويُزرع القمح وغيره من الزروع لصنع الخبز ، كما تُزرع أنواع عديدة من البقول (أى الخُضَر والخضراوات) . ولكن القطن المصرىّ الممتاز بصفاته هو أعظم شأنا من تلك المزروعات ؛ ذلك بأن قيمة ما يصدر منه فى المعتاد تبلغ ثلاثة أرباع قيم الصادرات فى التجارة المصرية . والمحاصيل الأخرى التى تصدر هى : البصل والسكر والأرز . وتكثر زراعة الأخير فى الدلتا . ويُزرع قصب السكر فى مصر العليا لاستخراج السكر منه ، كما يزرع مقدار

(١) استعملنا فى البحث عن مصر كلمة الرى لأنها تفشت عند إخواننا المصريين . أما فى الكتب العربية القديمة فقد كان يرجح استعمال كلمات السق والسقيا والإسقاء وما إليها — (المصحح) .

منه فى الدلتا ومغارس الموالح والكروم فى ازدياد . وقد دعا استغلال الأرض إلى الإكثار من تربية الماشية فى مصر على نطاق يفوق أمثاله فى مختلف بقاع الشرق الأوسط ، وذلك بسبب إدخال البرسيم Trifolium Alescandrinum فى الدورة الزراعية ، فهو غزير النبات ، يُحَشّ عدّة مرات ؛ وترعاه الماشية فى الأرض ، أو يحش فتُعلَفه أخضر أو حشيشا[١] .

ويعوّل الفلاح على الجاموس خاصّةً فى تدارك ما يحتاج إليه من اللبن ، أما سكان المدن العديدون فهم يعملون على الإكثار من تربية البقر الحلوب .

(ح) السودان :

بلاد مترامية الأطراف ، تبلغ مساحتها مليون ميل مربع ، وتختلف أوضاعها كل الاختلاف : فمن الصحراء فى الشمال ، إلى أراضى السنط المرجية ، فإلى السهل الفسيح ذى الأعشاب العراض الورق ، فإلى الحراج فى أقصى الجنوب . والأمطار تهطل فى الصيف إلّا فى القسم الساحلى المتصل بالبحر الأحمر . وتزداد كمية هذه الأمطار ، ويطول أوان تهطالها تدريجيا ، فبينا تكون مفقودة فى الشمال ، إذا بها تبلغ ستين بوصة فى الجنوب حيث يصبح نظام توزُّع الأمطار الاستوائية واضحا . وهنالك فى كل مكان فصل جاف بارز .

وتتعاقب أشكال الأراضى المذكورة من الجنوب إلى الشمال . فالصلصال الاستوائى الأحمر والأصفر الذى فى أقصى الجنوب الغربى ، قد تكوَّن من الطبقات الغرانيتية المركبة ومن صخور الغنيس ، ولا سيما رواسب الصخور الحديدية التى ترجع إلى ما قبل دور الميوسين من الحقبة الثالثة . وتصلح الأتربة والجويات هناك لعديد من الغلاّت الاستوائية منها القطن الأمريكى والبن القوى Coffea robusta والنخل الدهنى ، على أن يوفَّر لهذه النباتات ، ولا سيما للمعمر منها ، شرائط زراعية مناسبة للتغلب على تأثيرات الفصل الشديد الجفاف الذى يدوم نحو ثلاثة أشهر . والغلال التى تُرى اليوم هى المِنيهوت[٢] (المر والحلو)

(١) الحشيش فى كتب اللغة ما يبس من العشب . وهو فى الاصطلاحات الزراعية الكلأ المحشوش اليبس — (المصحح) .

(٢) تعريب Manihot وهو الاسم العلمى لجنس هذا النبات ، وليس له اسم عربى لأنه من أصل أميركى . وله نوعان مر وحلو . ويستخرجون من جذوره دقيقاً تصنع منه التبيوكا ويخبز ويطبخ : (عن معجم الألفاظ الزراعية) — (المصحح) .

والموز والبطاطة الحلوة[١] والذرة الرفيعة والذرة الصفراء[٢] والفول السودانى[٣] . ويكثر جداً ذباب الشَذا[٤] فى هذه الهضبة وفى الهضبة التالية ذات الصخور الحديدية ، وهى أقل تعُّداً وخالية من السكان . وعلى بعدٍ منها ، إلى الشمال توجد الأراضى الخضر والمناقع ، فى السهل الفيضانى الذى يمتد بعيداً إلى الجنوب من ضفة النهر الشرقية ، والذى يقطنه عدد كبير من أصحاب البقر ، من قبيلتى الدنكة والنوير ، وهم يزرعون أيضا الذرة والسمسم .

وفى جبال النوبه ، جنوبى كردفان ، تكوّن من الصخور الغرانيتية والغنيس أتربةٌ من النوع القلوى ، وذلك لقلة المطر ولزيادة الحرارة ، بالنسبة إلى جنوبى خط الاستواء . وهناك أراض واسعة من النوع نفسه ، واقعة شرقى النيل من خط الاستواء حتى كسلة ، وفى أطراف الأراضى الخضر والمناقع . وتُزرع الزروع السنوية ، ولا سيما الذرة وكثير من السمسم والفول السودانى . ونفشت منذ بدء الحرب زراعة القطن الأمريكى عذياً فى جبال النوبه .

ويتألف السهل الفيضانى الفسيح للنيل وروافده من غَضارٍ ثقيل متشقّق ، تتخلله مرتفعات رملية ، وجميعها طمىٌ منضَّد من رواسب تلك الأنهار .

وشمالىَ كردفان وكسلة والكُوَر الشمالية أرضون صحراوية إجمالا . ولكن فى كردفان أرضين واسعة من حراج القَرَظ[٥] لها قيمة تجارية هامة ، وهى تنبت على رمال كردفان الحُمْر .

ويُزرع القطن المصرى على مياه الفيضان السنوية فى السهول الرسوبية الفساح ، أو فى دالات « دلتات » القاش (قرب كَسَلة[٦]) وبَرَكة (قرب طوكر) .

وعلاوة على زراعة الذرة فى الأعذاء حيثما يكون ذلك ممكناً ، فالنظام الزراعى القديم

---

(١) تسمى أيضاً القلقاس الهندى .

(٢) الذرة الشامية فى مصر .

(٣) فستق العبيد فى الشام .

(٤) أطلقت كلمة شذاة ج شذاً على ذباب تسى تسى المشهورة . وسماها مجمع فؤاد الأول العدّام . انظر الشرح فى معجم الألفاظ الزراعية — (المصحح) .

(٥) هو السنط العربى يستخرج منه الصمغ العربى المشهور — (المصحح) .

(٦) وردت بالألف أى كسلا فى المجلد الخامس من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية — (المصحح) .

الذى يُتبع فى الشمال قوامه زراعة النباتات المختلفة فى جوار الأنهر ، سواء بالإسقاء البدائى ، أم بالاستفادة من الأراضى الرَّبَّا التى تنشأ عن جَزْر مياه النيل بعد الفيضان . وقد حُقِّق فى السنين الأخيرة توسع كبير فى أعمال الرى الحديث ، ومعظم ذلك فى الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض . وهنالك أيضاً توسّع فى جانب النيل الأبيض من كُوسْتى إلى جبل الأولياء ، وكذلك فى الشمال على النيل الرئيسى ؛ وقد ألحقت مياه القاش أيضاً بهذه المشاريع .

والقطن هو المحصول الأهم ؛ ومنه تحصل الحكومة على مواردها الرئيسية بوسيط أو بلا وسيط . والزروع الأخرى التى تدخل فى الدورة الزراعية هى الذرة واللوبياء . وهذه توفر للماشية علفها من القطانىّ . ويُزرع أيضاً القمح ، وأنواع من القطانىّ ، ومقادير قليلة من الزروع الأخرى والبقول ، ولا سيما فى المقاطعات الشمالية . وقد اتّسعت زراعة القمح فى الجزيرة وفى أراضى النيل الأبيض ، للحاجة إلى هذا الحب أيام الحرب .

وفى مساحات واسعة من جنوبىّ الجزيرة وجنوبيها الشرقى ، يتبعون فى الزراعة طريقة حرق العشب : وهى أن يشعلوا النار فى أعشاب الأرض بعد هطول المطر المبكر ، فيبيد قديمها وحديثها وضارّها ؛ ثم يزرعون تلك الأرض ذرةً ؛ فإذا استغلوها مرة أو أكثر ، تركوها تبور وتعشوشب وهكذا . وهذا النظام الزراعى يناسب القبائل الرُّحَّل ، ذلك بأن الذباب اللادغ يؤذى مواشيها فى الصيف ، فترحل شمالاً فى يوليو وأغسطس ، ثم تعود فى يناير وفبراير فتجنى غلال الأرض .

والزراعة البدائية الموضعية عامة فى جنوبىّ السودان ، وهى الطريقة التى ينتقل فيها الفلاح فى زراعته من أرض إلى أرض .

ويُرَبَّى البقر والضأن والمعز على أساليب الرعاة والقبائل الرُّحَّل .

(ط) ارتريا :

هى طَرْف هضاب الحبشة ، التى تتدرَّج إلى الشمال ، وتنحدر تباعاً حتى وسط تلك البلاد . ويتألف منها فى القسم الجنوبى من إرتريا هضبة جبلية يبلغ ارتفاعها ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ قدم . أما ارتفاع الهضبة والنجود فى الشمال فيبلغ ٤٥٠٠ قدم . ويمتد غربى هذا

الطرف المركزى من الهضاب ، سهل مجدب يستمر امتداده داخل السودان فى غربيه . وفى الجهة الشرقية من القمة المركزية وعرٌ منحدر يمتد حتى يبلغ السهل الساحلى الضيق لبحر القلزم (البحر الأحمر) . والهضاب الشمالية والجنوبية باردة ، ويغلب عليها الجفاف . والأمطار نحو ٢٠ إنشاً يهطل معظمها فى شهور الصيف ، بين مايو وسبتمبر . وتهطل أمطار الصيف أيضاً فى السهل الغربى ؛ وتبلغ ١٢ بوصة . ومع هذا ففى السهل الساحلى أمطار شتوية تتراوح بين ست بوصات فى الأراضى الساحلية ؛ و ٣٠ بوصة فى الوعر المنحدر وفى سفوح النجود .

والأعمال الزراعية فى هذه الأقسام الأربعة معلَّقة ، إلى حدّ بعيد ، على عوامل الإقليم وطوبوغرافية الأرض . وزراعة الهضبة الجنوبية للقمة المركزية مستقرة على شكل بارز ، ولا تكفى الغلال لسد حاجات السكان ، وذلك لأسباب كثيرة ، منها أنّ معظم الأراضى قليلة الخصب ، وأن الأراضى السود الخصبة تستغل بإفراط ، وكون السكان رجال حرب لا يميلون إلى الفلاحة ؛ والمراعى قليلة .

وسكّان الهضبة الشمالية رعاة رُحَّل ينتقلون فى فصل معلوم إلى السهل الشرقى وسفوح نجوده . وسكان السهل الشرقى خاصةً بدوٌ يملكون البقر والضأن والمعز والإبل ، وكثيراً ما ترحل المعزى والإبل من جنوبى السهل الشرقىّ إلى بقاع بعيدة من الحبشة . والأمطار العظمى التى تهطل على السفوح تساعد على زراعة مقادير معيّنة من الأعذاء .

ويتضمّن السهل الغربى بقاعاً زراعية غنية لا تُستغل استغلالاً تاما . ومن أسباب ذلك فقدان المياه الدائمة . ولكن السبب الأكبر هو المعيشة البدوية التى يعيشها رجال القبائل ، وقد اتّسعت الزراعة المستقرة على يد المهاجرين من السودانيين وأبناء غربى أفريقية .

(ى) الحبشة :

بلاد ذات تشكُّلات طوبوغرافية معقدة ، معظم أراضيها الزراعية فى المرتفعات . ويمكن تقسيم هذه البلاد ، على وجه التقريب ، إلى بقعة معتدلة مرتفعة الأرض ، وكورة منخفضة سهلية . تحيط بكتلة الجبال المركزية ؛ والمعلومات المتعلقة بجوياتها قليلة جدا . والأمطار

غزيرة فى الجملة ، يزيد ارتفاعها على ٤٠ بوصة فى السنة ، فى الأرضين التى تعلو أكثر من ٦٥٠٠ قدم . ومعظم الأمطار تهطل من يونيو حتى سبتمبر . ويسقط قليل من المطر فى مارس وأبريل . والينابيع والآبار غزيرة . وحتى على حدود أراضى الصومال الفرنسى فإن المياه غزيرة فى عمق يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ قدما .

والأتربة على ثلاثة أنواع : (ا) أتربة الوديان والسهول الواسعة ، وهى سود غنية منشؤها الِنسَفُ[١] . (ب) الأتربة الحُمر والسُمر ، وهى فى الغالب رملية وصخرية تنمو فيها نباتات الحراج . (ج) الأتربة الشُهب والحُمر ، فى بنائها الرئيسى المَرْو[١] والطَلْق[١] من صخور الأَعْبَل أى الغرانيت المتبلور ، وهى فقيرة قليلة الخصب .

والبلاد مُمْرِعة فى الجملة . وقد صيّرها توزُّع الأمطار واختلاف مستوى الأرضين مراعى للماشية وبيئة صالحة لأنواع شتى من الغلال .

وزراعة الفلاح على مستوى عالٍ . فالبذور الدهنية والقطانىّ وكثير من البقول وشجر الفواكه الأوربية تزرع بنجاح إلى جانب حبوب الحِبازة . وتزرع النباتات الليفية كالقطن وموز الحبشة Musa insete وللبنّ شأن فى بعض البقاع .

وإذا غُضّ الطرف عن ذكر الأوبئة العامة أمكن القول بأن عوامل البيئة صالحة للماشية ، والماشية فى الحقيقة أحسن حالا مما تنم عليه مظاهرها ومظاهر تربيتها . ويرجح الزُرّاع الحرث والزرع على غيرهما فى الهضاب المرتفعة ، على حين أن المراعى فى هذه البقاع جيدة ، وأن الزراعة المختلطة فيها متيسرة على وجه التأكيد . والبيئة فى سهول الدناقل والصومال المنخفضة أقل صلاحا للماشية ؛ ومع هـذا فالبقر فيها يكاد يكون ثروة السكان الوحيدة . ومعظم البقر من نوع الدَرْبَانىّ[٢] ، له خصائص وصفات تختلف فى مختلف أقسام تلك البلاد . ومن المعروف أن القبائل المتحضرة تتوخى قابلية العمل فى أبقارها ، أما القبائل المتبدّية فهى تتوخى فيها الدَرّ واللحم والجلد . وللجلود كبيرها وصغيرها شأن يذكر فى الإصدار على الرغم من انحطاط مستوى الدباغة .

---

(١) النسفة والنشفة Basalte والمرو Quartz والطلق Mica .

(٢) الدربانى ج دراب Bos indicus والبقر الدربانية لها سنام ، وقد تأنست ؛ وهى من فصيلة البقريات (عن معجم الألفاظ الزراعية للمصحح) .

وتربية الضأن ناجحة ولا سيما فى المواقع المرتفعة . ومن دلائل نقصان المعلومات عن هذه البلاد اختلاف آراء سلطاتها فى تقدير عدد رءوس المعز فيها قلةً وكثرةً . أما الدجاج والنحل فكثير .

ومع أن العوامل الزراعية فى البلاد ممتازة ، فإن مصاعب النقل والمواصلات فيها كبيرة ، حتى إنه ليُشك من الناحية الاقتصادية فى إمكان إصدار الغلال الغذائية . لكنه من المحتمل البدء بإصدار جَنَى بعض المغروسات كالقهوة — التى يصدر منها اليوم بعض المقادير — وربما أمكن أيضاً إصدار النباتات الطبية .

(ك) محمية عدن :

تقع هذه المحمية فى إقليم الأمطار الصيفية ؛ فالرياح الشمالية الشرقية تبعث المطر بين مارس ومايو . ويعقبها شهر حارّ جاف تليه أمطار يوليو إلى سبتمبر ؛ وبواعثها الرياح الجنوبية الغربية . وقد تسقط أمطار موضعية فى الشتاء من عواصف المحيط الهندى .

والأمطار متفاوتة كميةً وتوزيعاً . وهى غير كافية ، إلا أمطار الأراضى الغربية . ولهذا يجب تلافى هذا النقص بالإسقاء إما سيحاً ، أى بماء الأنهر والسيول ، وإما بماء الآبار .

وقد عولج بحذق هذا الوضع الذى فرضه نظام المطر وطوبوغرافية البلاد المتألفة من هضاب جبلية ، ومن هضاب عالية قاحلة تتخلّلها وديان سحيقة . فقد حُولت منحدرات جبلية شديدة الميل إلى مدرَّجات[1] ، وزرعت بالأيدى قطع الأرض الصغيرة الناشئة عنها . وفى القيعان ، حيث تكون تلك المدرَّجات أعرض من غيرها ، بُذل جهد كبير فى ضبط المياه التى تسيل من المنحدرات ، ومن أطراف الروابى العارية المتاخمة لها ، وبذلك أمكن الوصول إلى مستوى عالٍ من النتائج الفعالة فى الأعمال الزراعية الموافقة لزراعة الأراضى اليابسة[2] .

وفى قيعان هذه الأراضى العالية يُعنى عناية خاصة بالرى من مياه السيول التى تتدفّق

---

(١) تسمى الربابيع مفردها ربعة بعامية الشاميين — (المصحح) .

(٢) وصف هارتلى « أساليب الزراعة اليابسة فى محمية عدن » وصفاً ممتازاً B. J. Hartley. Dry farming Methods in Aden protectorate مؤتمر التطور الزراعى فى الشرق الأدنى التقرير الزراعى رقم ٦ ، القاهرة ، مركز تموين الشرق الأوسط .

فى الوديان ، لأن الأمطار وحدها ليست بكافية . وهكذا يبدلون مساقط المياه العكرة ، بما تحمله من غرين[1] ، مقيمين فى وجهها سُكوراً من الحجارة والعِيص ، ثم يُجْرونها فى مجارٍ حتى تبلغ الأراضى المستوية ذات الأعضاد . وهو ضرب من الإسقاء بالحياض أى بالغَمْر ، شمله شىء من التعقيد ، بسبب ارتفاع المدرَّجات المستمر الناشئ عن تراكم الغرين فيها ، مما يدعو إلى رفع مستوى السكور فوق الجداول .

وفى بعض الوديان الأكثر انخفاضاً يُطبَّق نظام آخر للرىّ ، وهو بناء أسداد متتابعة من التراب فى الوادى ، فى فصل الجفاف ، حتى إذا ارتفع مستوى المياه ، سالت كالصفائح المتحركة على أوسع مساحة ممكنة . ويكون هدف الزُّرّاع أن تقف تلك المياه ثمانياً وأربعين ساعة على الأرض . وبعدئذ إذا لم ينكسر السد فإنه تحصل فيه بُثوق واضحة تنحدر المياه منها إلى السد الأسفل وهكذا .

وتُستعمل مياه باطن الأرض فى الإسقاء حيثما يكون ذلك ممكنا . ويوجد كميات قليلة من المياه الدائمة فى بعض الأماكن ومنها الساحل .

والذرة غلة ذات شأن فى القسم الغربى من المحمية . فهى بعد الحصاد إذا سُقِيت بالطفح جيداً يعود نباتها فينمو من الجذور ويُغلّ غلة ثانية حسنة .

والسمسم محصول آخر هام . واللوبياء والحمص يُزرعان مختلطين بالذرة . وتُزْرع الخضراوات على مياه الآبار . أما المياه الدائمة فتُستعمل جميعها فى سقى شجر فواكه البلاد الحارة كما فى لحج ، وكسقى البنّ فى يافع . وقد أُدخلت زراعة البطاطس أخيراً (عام ١٩٣٩) إلى الأراضى المرتفعة . وتشمل الماشيةُ الضأن والمعز والبقر الأميرى الأحمر ، وهو من السلالات الصالحة للدَّرّ والعمل .

والقسم الشرقى من المحمية أفقر زراعياً من قسمها الغربى . وهو سهول معشوشبة لها طابع المراعى . ولكن هناك فى الكورة الصغيرة المعروفة باسم حضرموت تطوراً جدّ هام فى زراعة الأرض : فهم يزرعون أراضى الوديان المتّسعة ، ويسقون قسما منها بمياه السيول وقسماً بمياه الآبار .

---

(١) الغرين والغرين والتقانة : الطمى — (المصحح) .

والأتربة رملية إجمالاً (لكن أتربة الوديان العالية أثقل) . وهى تستفيد من كل ما يُهيّأ من قمامة البيوت ونفاية البقول والمُمرَزات البشرية يستعملونها كالزبل فى التسميد . ويقوم نظام الزراعة حول الآبار . ولكل بئر نحو خمسين نخلة فى مساحة إيكرين اثنين من الأرض تقريباً . وللذرة زرعتان ، واحدة تُزرع فى مارس ، وواحدة فى أغسطس حتى سبتمبر . وتُزرع زروع عديدة مساعِدة منها الفصفصة[1] والبقول ومختلف أشكال الدخن ويُزرع قليل منها بين زرعات الذرة . ويكثرون من زراعة الحنطة على قدر المستطاع . وتُضبط مياه السيول ، وتُوجَّه بأسداد وسُكور من التراب أو من الحجارة المبنية . والسيول غير منتظمة سواء من حيث أوقات سيلانها ، أم من حيث مقادير مياهها ، ولذا تختلف مساحات الأراضى التى تُستغلّ عليها . ويتّضح أن هذا النظام الزراعى الكثيف الذى توسَّع فى كورة غير ملائمة ، أصبح محدوداً بسبب ضغط السكان الذى يوجب إنتاج أعظم مقادير من طعام البشر ، وأصغرها من علف الحيوان . وهناك عثرة أخرى نشأت عن ازدياد الأملاح فى القطع المنخفضة من الوديان ، مما يدعو إلى إهمال الآبار و إهمال السَقى بمياه السيول فى كل أرض أفسدتها الأملاح .

(ل) طرابلس الغرب وبرقة (لوبية)[2] :

القطران متشابهان فى الإقليم والطوبوغرافية . فثمةَ سهل ساحلى هو فى طرابلس الغرب ، أوسع منه فى برقة حيث يضيق جداً ؛ ويستثنى من ذلك كُورة برقة المتاخمة لبلدة بنغازى . وفى جنوبى السهل مرتفعات وعرة مائلة يتألف منها الجبل . والأماكن الوعرة تساير الجبل على معظم امتداده . وهو سلسلة من التلال تبرز على شكل هضبة داخلية تنحدر تدريجياً فى اتجاه الجنوب إلى الصحراء .

وتمر الانخفاضات الجوية فى أشهر الشتاء . وتكون بعيدة فى الشمال . وتؤدى إلى هطول قليل من المطر . ولكن كميات متوسطة من المطر تسقط بين نوفمبر و إبريل ، بسبب السُحُب التى تحملها الرياح البحرية الموضعية وتصعد بها فوق التلال ورءوس الهضاب .

---

(١) البرسيم الحجازى فى مصر — (المصحح) .

(٢) شاعت كتابتها بالياء أى ليبية . وفى مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية لوبيا أو لوبية — المصحح.

وهذه الأمطار غير منتظمة فى مقاديرها ، كما أن فى توزيعها تفاوتاً ، سواء من حيث الأوقات التى تهطل فيها ، أم من حيث مدى تهطالها . ولهـذا ليس لمعدل الأمطار السنوية وحده قيمة كبيرة . وهناك عامل إضافى مهم ، وهى الرياح القبليـة ، فهى حارة مجفِّفة ، تهب من الجنوب فى الربيع والصيف ، وكثيراً ما تسبب أضراراً جسيمة فى الزرع والبقول .

ومع أن الطوبوغرافية والإقليم متشابهان فى قطرى طرابلس الغرب وبرقة فالأتربة فيهما مختلفة أى أنها رملية خفيفة فى طرابلس ، وأكثر اندماجا فى برقة . وهى صلصالية حُمْر ثقيلة على العموم ، فى شبة الجزيرة الواسعة بين مدينتى بنغازى ودرنة حيث القسم الأهم من الأراضى الزراعية .

ونظام النبات النموذجى فى كلا البلدين هو نظام المراعى السهلية الواسعة . ونباتات الكلأ التى تكسو الأرض هى فى برقة أكثف منها فى غيرها . وفى بعض الأقسام من منحدرات جبل هذا القطر أشجار وغابات حسنة . ولا يشاهَد فى برقة أيضا إلا القليل جداً من المشاهد الدالة على اجتراف الأتربة . وهذا برهان على أن تلك الأراضى تتصف بمقاومة الاجتراف (ويتضح ذلك من الأدلة العديدة فى حُفَر التنقيب عن الآثار ، وفى القنوات التى احتفظت بشكلها الأصلى مدة سنتين أو ثلاث سنين) .

والزراعة فى طرابلس الغرب تَبَعٌ للأمطار على الأخص . وعلى طول النطاق الساحلى مساحات واسعة من النخيل تُزرع بينها البقول والحبوب ، على دورة ثنائية قوامها الغلال والراحة[1] . والزُّرّاع بدوٌ تحضروا وصارو مزارعين وأدركوا مستوى زراعياً محمودا .

والحقول مُعتنى بها . وقد أُصلحت الأراضى الخفيفة فى تركيبها وخصبها ، إصلاحاً حسناً ، وذلك بتسميدها بسماد المزرعة المؤلف من الزبل ونفايات البقول والمنازل ، بعد تجزئتها جيداً .

ويُزرع فى السهل الساحلى نوع جيّد من الشعير فى السنين المَطِرة ؛ وتمتد زراعته حتى الجبل . وفى السنين المجدبة يسرحون الماشية فيما قد يكون فى الأرض من الزرع الضعيف . ويوجد عدد من أشجار الزيتون الهرمة فى التلال والهضاب ، وهى ما برحت تأتى أُكُلها . ويبعثرون التراب ويهيئونه حول كل شجرة فى الأعم ، أو حول مجموعات من الشجر ، على

---

(١) هو نظام التحويل تزرع فيه الأرض حولا وتترك حولا — (المصحح) .

شكل يدعو إلى سيلان الماء إلى جذورها من الأراضى المجاورة ، وهكذا تزداد موارد الرطوبة . ويُزرع الشعير هنالك أيضاً على غرار السهل الساحلى ، ولا سيما فى المنخفضات وفى قيعان الأودية ؛ حيث تجتمع المياه فى السنين المَطِرة .

ومعظم المواشى تُربى على الطريقة المألوفة ، وهى طريقة نصف بدوية ، ويسود فيها الضأن والمعز . ومنذ الاحتلال الإيطالى تبدَّل ، فى أماكن عديدة ، هذا الطابع المألوف لزراعة الأعراب التى يُرى فيها أحياناً مقادير قليلة من مياه الإسقاء ، تُستعمل فى استغلال البقول والفول السودانى وغيرها ، حيثما يمكن حفر آبار قليلة العمق ، تُرفع مياهها بقوة الحيوانات . فقد ازدادت كثيراً مغارس الزيتون واللوز ، واتَّسعت أيضاً زراعة الكروم لأنها تنجح جيداً ضمن الشروط الموضعية . واستُنبطت مياه أغزر للاسقاء بحفر آبار ارتوازية ، واستُعملت هذه المياه فى غراسة الموالح ، وزراعة الخضراوات ، ونباتات العلف ، وثُبتت مساحات واسعة من الكثبان الرملية وجُعلت حِراجا . وأكثر هذه التطورات حديثة ؛ وهى لم تكتمل بعدُ بسبب المياه . وهذا الطور الأول الذى مُنح فيه الأفراد غالباً امتيازات بأرضين واسعة تبلغ مساحتها آلاف الأيكرات ، تَبعه طور آخر سُمى الاستعمار الإنسانى[1] ، فأُتى بفلاحين وأُسرهم من إيطالية ، وأقيموا فى مستعمرات مهيأة ، وقد بُحث فى هذا التوسع بإسهاب فى الفصل الثالث ، ا ، ط .

وللفلاحة عند القبائل العربية فى برقة طابع ذو وجهين : زراعى ، ورَعَوى . ويُحرث النطاق الساحلى الضيق لزرع الشعير . وتنتج المواقع المناسبة الفواكه وغلات الأسواق ، وذلك باستعمال مياه الإسقاء من الآبار والينابيع . ويُغرس النخيل أيضاً ، ولا سيما حول درنة . ولكنه هناك ليس فى جودة ما يغرس منه فى نطاق طرابلس الغرب ، حيث الجو أقل رطوبة منه فى درنة . ويُزرع الشعير فى مواقع مختلفة جدا من سهل البَرْس والهضبة الواسعة . ويمتد الحصاد من مايو إلى أغسطس ، وهذا جد ملائم لطراز حركة الماشية نصف الرحالة ، ومعظمها ضأن ومعز ، إلى جنوبى الهضبة فى ديسمبر ، حيث ترعى وتعود فى مايو .

---

(١) هو استعمار المهاجرين بالجملة ، تستملك الأرض لهم وتجزأ مزارع ، وتبنى الأبنية فينتقلون إليها وقد هيئت للاستغلال (المصحح) .

ونوفمبر هو الشهر الذى يكثر فيه وضع النعاج ، والعشب الغض والدفء فى الجنوب يؤاتيان الضأن والخراف جميعا .

وكانت تجارة الضأن واسعة قبل الحرب ، وكان مسير القطعان إلى الأسواق المصرية عند ما تُعشب الأرض فى النطاق المرجى الجنوبى . وفى السنين المغلة كان الشعير يفيض عن الحاجة فيُعَدّ للإصدار .

ويلاحظ أن الاستعمار الإيطالى قد بدّل كثيراً — كما فى طرابلس الغرب — من النظام القائم على إنتاج ما يضمن الحاجة فألّف بين طريقة الرعاة نصف الرحّالة ، وطريقة الزراعة المتنقلة . وقد بُحث فى ذلك فى الفصل الثالث ا ، ط . ولكنه من المفيد ذكر نقطتين فى بحثنا هذا : الأولى كون المستعمرات اليونانية والرومانية القديمة التى كانت فى هضاب الجبل ومنحدراته ، تقيم الدليل على أن هذه الكورة كانت تغذّى عدداً كبيراً من السكان الزراعيين . والثانية كون سهل البَرْس المتسع الذى تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠ إيكر ، والذى خلا من الأدغال ، كان يُستَغَل فى الحرب بالآلات ، فيُغِل كميات كبيرة من الشعير .